

## التجارة في مصر الإسلامية

الدكتور محمد حمدي المناوي

### القسم الاول

النشاط التجاري منذ الفتح حتى نهاية العصر الفاطمي (١)

كانت مصر طيلة عصور التاريخ بموقعها الممتاز وسهولة اتصالها بالبلاد الاخرى برا وبحرا سوقا تجارية هامة وممرا تعبر عليه تجارة الشرق والغرب • ولكن تحت حكم البيزنطيين وقبيل الفتح الاسلامي كسدت الحركة التجارية بعض الشيء اذ وجد التجار المصريون المنافسة الشديدة من تجار الروم واليهود داخل مصر نفسها ، كما أنه من المراجع أن التجارة الخارجية كان يسيطر عليها البيزنطيون •

ولما فتح العرب مصر ، ابتدأت التجارة تزدهر من جديد للأسباب الآتية :

أولا : كان كثير من العرب يشتغلون بالتجارة ، وكانت لهم خبرة كبيرة في التبادل التجاري مع البلدان الاخرى ، فرحلنا الشتاء والصيف ، والتي نوه عنها القرآن الكريم في « سورة قريش » كانت تتجه الى الشام والعراق ومصر وغيرها شمالا ، واليمن والحبشة وغيرها جنوبا تحمل تجارات البلدان المختلفة فضلا عن منتجات الجزيرة العربية نفسها • فالعرب اذا كانوا يولون التجارة الكثير من العناية والرعاية •

ثانيا : لما فتح العرب مصر كانت تفيض بالشراء وتنوع فيها المحاصيل وأصبحت بحكم موقعها واسطة العقد في تلك الدولة الاسلامية المترامية الاطراف تربط اجزاءها الشرقية بالغربية •

ثالثا : ترك العرب التجارة في مصر في ايدي ابنائها وغيرهم من الاجناس حيث تركوا لهم الحياة المدنية وشغلوا هم بالحرب والجهاد •

رابعا : سهولة الاتصال والسفر في داخل مصر والى خارجها ففي داخل مصر كان طريق الملاحة في النيل هو الطريق الهام والرئيسي لنقل البضائع والمسافرين وذلك لصلحية مجراه في مصر للملاحة •

١ - لطول الموضوع وتشعبه رأيت تقسيمه الى قسمين القسم الاول المنشور في هذا العدد وارجو ان تسمح الظروف باستكمال الموضوع في العدد القادم باذن الله والذي سيتعرض للنشاط التجاري في العصرين =

كما ان وجود العديد من الموانئ على سواحل البحرين الاحمر والابيض مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما والقلزم وعيذاب سهلت انتقال التجارة من والى مصر



هذه العوامل كلها عملت على ازدهار التجارة وانتعاشها ، وأخذت السفن تجرى جنوبا وشمالا حاملة التجارات من مكان الى آخر . كما كانت القوافل التجارية تجد طريقها حتى في أيام الفيضان على الجسور التي كانوا يعنون بها عناية فائقة حيث كان يخصص لاصلاحها واصلاح مجرى النيل وازالة الجزر التي قد تظهر في مجراه وتعوق الملاحة مائة وعشرون ألف عامل مجهزين بالالات اللازمة طيلة العام صيفا وشتاء بلا انقطاع . حتى أصبحت مصر بلد التجارات كما يصفها المقدسى (١) والتي يذكر من منتجاتها وتجاراتها « في الصعيد الارز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس الثياب الملونة ، ومن دمياط الثياب القصب ، ومن الفيوم الارز ومن بوصير الكتان الرفيع ومن الفرما الحيتان ، ومن مدنها القفاف والجمال من الليف في غاية الجودة ، ولهم القباطى والارز والخيش والعبادانى والحصر والجبوب والجلبان ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك . » وانه لا نظير لرخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وغزلهم وصبغهم وتجاراتهم ، كل ذلك في غاية الجودة . »

وأصبحت الفسطاط مركز تجارة مصر ، وبنيت فيها القيساريات الخاصة بالتجارات المختلفة ، ويذكر ابن عبد الحكم (٢) منها القيساريات التي بناها عبد العزيز بن مروان مثل قيسارية العسل وقيسارية الجبال وقيسارية الكباش وقيسارية البز . ثم بنيت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك قيسارية خاصة ليبيع فيها البز الفسطاطى ويصف المقدسى (٣) الفسطاط بانها « متجر الانام ، حسنة الاسواق العامرة بالاطعم اللطيفة والادماة النظيفة والحلاوات الرخيصة ، كثيرة الموز والرطب ، غزيرة البقول والخطب » . ويستطرد قائلا : « ويطول الوصف بنعت اسواقه وجلالته ، غير انه اجل امصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم . ومع هذه اشترت الخبز الحوارى ولا يخبزون غيره ثلاثين رطلا بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق ، والموز والرطب رخيص ، يجيء أبدا اليه ثمرات الشام والمغرب وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم تجارته عجيبة ومعاشه مفيدة وامواله كثيرة » . وبلغ من كثرة عدد السفن على ساحل الفسطاط انها شدت انتباه المقدسى الذى يصف دهشته من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، حتى لقد قيل له ان ما على هذا

---

الايوبى والمملوكى اللذين تميزا بظهور عوامل هامة على مسرح الاحداث مثل الحروب الصليبية والغزو المغولى وبروز الدور الهام للمدن التجارية الايطالية التي سيطرت على التجارة العالمية حتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

١ - المقدسى ، احسن التقاسيم ص ٢٠٣

٢ - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ص ١٣٦

٣ - المرجع السابق ص ١٩٧ وما بعدها .

الساحل من السفن مآلو ذهب الى بلدة بيت المقدس لاستطاعت حمل المدينة بما فيها .  
فلا غرو اذا حفلت اسواقه واتسعت تجارته وتعددت قيسارياته ، حتى لقد اعجب الرحالة  
الفارسي ناصر خسرو الذى زار مصر في القرن الخامس الهجرى بما رآه في مصر من  
ثراء وبالدكاكين المملوءة بالذهب والامثلة وقد دهش من كثرة محصولاتها وتعدد انواعها  
في وقت واحد ويظهر انه خشى اتهامه بالمبالغة فيقول (١) « وكل من يفكر كيف  
تجتمع هذه الاشياء التي بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها  
شتوى لا يصدق هذا » ولكن ليس لي قصد فيما ذكرته ولم اكتب الا ما رأيت » . ويذكر  
ان التجار كانوا يضعون مبيعاتهم للمشتريين في اوان زجاجية .

ويذكر المقرئى (٢) نقلا عن القضاى « انه طلب لقطر الندى ابنة خمارويه بن  
أحمد بن طولون ألف تكة بعشرة آلاف دينار من اثمان كل تكة بعشرة دنائير ، فوجدت  
في السوق في ايسر وقت واهون سعى » . كما ينقل عن ابن المتوج الذى ينقل بدوره عن  
أحد اكابر العلماء ، انه عد في سوق خارج الفسطاط ثلثمائة وتسعين قدر حمص  
مسلوق سوى المقاعد والجوانيت التي بها الحمص ، ويستطرد ان هذا السوق خارج  
المدينة والمعروف ان اسواق داخل المدينة اكبر واعظم ، ومع ذلك ففى هذا السوق من  
صنف واحد من المآكل هذا القدر ، ويتساءل فكيف ترى تكون جملة ما فيه من سائر اصناف  
المآكل وقد كان اذ ذاك بالفسطاط عشرة اسواق كلها اواكثرها اجمل من هذا السوق

ولما بنيت القضاى في عهد ابن طولون ، انشئت فيها الاسواق المختلفة ، التي تضم  
كل منها التجارات المتشابهة ، مثل سوق العيارين ويجمع البزارين والعطارين ،  
وسوق الفامين ويجمع الجزارين والبقالين والشوائين ، وسوق الطبّاخين ويجمع فيه  
الصيارفة والخبازين واصحاب الحلواء ، ثم لكل صنف من جميع الصنائع « أفرد له  
سوقا حسنا عامرا نبيلنا صينا » (٣) .

وجاء بخط المقرئى (٤) « انه كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من  
الاسواق شىء كثير جدا باد اكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها ان الذى خرب من  
الاسواق فيما بين اراضى اللوق الى باب البحر بالمقس ، اثنان وخمسون سوقا  
ادركناها عامرة ، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا . وهذه الخطة من جملة  
ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر » .

ويذكر (٥) ايضا ان القصبة كانت اعظم اسواق مصر ويقول : « سمعت غير واحد ممن  
ادركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت . وسمعت الكافة

١ - ناصر خسرو ، سفر نامه ص ٦٢/٦٠

٢ - المقرئى ، الخط ج ١ ص ٦١٩ .

٣ - البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ص ٥٤

٤ - ج ٢ ص ٤٥٩ وما بعدها ، والمقصود بمصر هنا الفسطاط .

ممن ادركت يفأخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن والتي يوضع فيها الجبن ، والتي تأكل فيها الفقراء بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق والخيوط التي تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والافاويه وغيرها ، فإن هذه الاصناف المذكورة اذا حملت من الاسواق ، واخذ ما فيها القيت على المزابل » . .

ومن اسواق القاهرة التي ذكرها المقرئى سوق حارة برجوان التي انشاها بدر الجمالى وقد ظلت حتى زمن المقرئى ( القرن الثامن الهجرى ) الذى يقول « ادركت سوق حارة برجوان اعظم اسواق القاهرة ، وما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة وان لها السوق الذى لا يحتاج سكانها لغبره » وهناك ايضا سوق القماحين وسوق الشرايين الذى انشاه المعز لدين الله الفاطمى في صفر سنة ٣٦٥ هـ ( ٩٧٥ م ) .

ولم تكن العاصمة فقط هى مركز التجارة ، ولكن كانت هناك تجارة نشطة في كل مكان فناصر خسرو يصف مدينة الصالحية من اعمال الشرقية فيقول : « سارت بنا السفينة حتى بلغنا مدينة الصالحية وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات وتصنع بها سفن كثيرة حمولة كل منها مائتا خروار » (١)

ومن المراكز التجارية الهامة المشتول من قرى بليس بالشرقية ويصفها المقدسى (٢) بانها كثيرة الطواحين ، ومنها يحمل اكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكمك ، وانها بلغت في وقت ما من السنة ثلاثة آلاف حمل جمل كل اسبوع كلها حبوب ودقيق . اما مدينة المحلة فكانت تشتهر بتجارة الزيت ، ومدن البلينا وملوى وسمهود من صعيد مصر بتجارة السكر . اما مدينة انصنا فتتخص بتجارة الخشب المعروف بالبنيج يباع اللوح منه بخمسين دينارا ونحوها . كما ان مراكز صناعة النسيج في تنيس ودمياط والاسكندرية وشطا والقيسى والبهنسا وغيرها ، كانت تموج بالحركة التجارية نظرا لما اشتهرت به منسوجاتها في مصر وخارج مصر على السواء .

وكما اشتهرت مصر بتجارة المنسوجات كان لها شهرتها ايضا في استخراج المعادن وتصديرها للخارج ، خصوصا معدن الزمرد وكان مركز استخراجه وتجارته مدينة قفط بالصعيد حيث كان يستخرج من الجبال القريبة منها .

وقد دخلت الحكومة منذ وقت مبكر ميدان التجارة ، فاحمد بن المدبر عامل خراج مصر ( ٢٥٤/٢٤٧ هـ ) احتكر تجارة النطرون ، وكان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم يتاجرون في الغلال وغيرها من اصناف التجارات .

١ - المرجع السابق ص ٤١ والخروار يساوى حمل حمار

٢ - المرجع السابق ص ١٩٥/١٩٦ .

الا ان الحكومة ايضا كانت ترقيب الاسواق مراقبة دقيقة حتى لا يقوم التجار بالغش او محاولة رفع الاسعار في ظروف معينة مثل قصور النيل ، فقد كان المتبع انه عند بدء زيادة النيل منذ اواخر شهر بؤونة (١) كان يذاع كل يوم مقدار الزيادة ولما كان في اباحة الاعلان عن الزيادة دفع لبعض الناس اذا توقف النيل عن الزيادة او كانت زيادة قليلة - الى احتكار الاقوات او تخزينها مما يسبب الغلاء ، فان المعز لدين الله الفاطمي أمر في شوال سنة ٣٦٢ هـ بإبطال النداء والاكتفاء بكتابة رقعة للخليفة واخرى لجوهر الصقلي بزيادة النيل اليومية حتى اذا تمت زيادته ستة عشر ذراعا ابيح النداء (٢) ، كما ان الياوزرى وزير الخليفة الفاطمي المستنصر اثناء الازمة سنة ٤٤٦ هـ وجد ان التجار قد انتهزوا فرصة اعسار الزراعة واشتروا منهم محصول القمح قبل نضجه بسعر بخس ، فامر بمصادرة هذه الغلال وعوض التجار عما دفعوه ثم طرح الغلال في الاسواق بسعر منخفض ، واستطاع بذلك ان يجتاز الازمة بسلام حتى ادركته الغلة الجديدة .

وكانت مهمة الاشراف على الاسواق ومراقبة التجار ، تسند الى موظف كبير هو المحتسب وكان يختار من وجوه المسلمين واعيان المعدلين وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع اعمال البلاد كنواب الحكم . وكان معاونو المحتسب يطوفون على ارباب الحرف لمراقبة الاسعار وصلاحيه البضائع التي تعرض خصوصا الاطعمة ومراقبة الموازين والمكاييل الى جانب مراعاة الآداب العامة في الطرقات والاسواق خاصة الاسواق التي ترتادها النساء عادة . ولكل فئة من ارباب الحرف شيخ مسئول عن تنفيذ التعليمات ويكون الصلة بينهم وبين المحتسب .

وللمحتسب الاشراف على دار العيار التي تعير فيها الموازين والصنج والمكاييل وتعتمد من المحتسب أو نائبه . ولا تباع المكاييل والموازين والصنج الا بهذه الدار . وكان المحتسب يستدعي الباعة من وقت لآخر لعيار موازينهم ومكاييلهم ومصادرة غير الصالح منها .

هذا عن التجارة الداخلية ونشاطها ، ولم تكن التجارة الخارجية اقل نشاطا ، فقد ازدهرت تجارة مصر الخارجية بعد الفتح ، وأخذت البضائع المصرية تصدر الى خارج البلاد وتأتيها بضائع البلاد الاخرى ، كما كانت تمر بها التجارة من المشرق الى المغرب وبالعكس وكانت أهم الموانئ والثغور المصرية هي الاسكندرية ودمياط وتينيس والفرما على البحر الابيض ، وعيذاب والقلمز واية على البحر الاحمر ، وبلاق الحد بين مصر وبلاد النوبة .

---

١ - شهر بؤونة من شهور السنة الشمسية التي تعرف بالسنة القبطية وهو يوافق شهر يوليو وشهور السنة القبطية هي : توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبة وامشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤونة وأبيب ومسرى .

٢ - القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٦ .

وقد كانت الاسكندرية اهم الموانى المصرية ، وكانت عاصمة البلاد قبل الفتح ، ولم تفقد اهميتها بعد نقل العاصمة الى القسطنطينية ، وظلت ملتقى التجارة العالمية ، وكانت ترد اليها وتخرج منها البضائع الواردة او الصادرة الى بلاد غرب البحر الابيض المتوسط .

اما تنيس ودمياط والفرما فكانت ترد اليها وتصدر منها تجارة شرق البحر الابيض ويصف المقدسى (١) تنيس : « بانها بغداد الصغرى وجبل الذهب ومتجر الشرق والغرب ، اسواق ظريفة واسماك رخيصة وبلد مقصودة » وقد اشتهرت تنيس بصناعة الثياب المعروفة باسم الشروب التى لا يصنع مثلها في اى مكان آخر داخل مصر او خارجها . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل - سداء ولحمة - غير اوقيتين وينسج ما فيه بالذهب بطريقة لا يحتاج بعد ذلك الى تفصيل او خياطة ، وكانت قيمة الثوب من هذا النوع ألف دينار . وكان ما يرسل منها من منسوجات الى العراق ما تبلغ قيمته ما بين عشرين ألف الى ثلاثين ألف دينار وذلك الى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ . (٢)

أما دمياط فيصفها المقدسى (٣) بأنها أعظم وأكبر من تنيس ، ويصف الفرما بانها مجمع الطرق حسنة الاسواق وحولها مصايد السمك الجيد ، وكانت التجارات الواردة من الغرب الى الشرق تأتى الفرما حيث تحمل منها على ظهور الدواب الى القلزم ، ثم تحمل في السفن في البحر الاحمر الى الحجاز واليمن والسند والهند والصين .

وقد كانت عرب القيسية يقومون بنقل البضائع والطعام الى القلزم منذ جاء بهم ابن الحبحاب الى مصر سنة ١٠٩ هـ (٤) . وكانت القلزم مكان السويس الحالية وكانت ثروتها تجيء عن طريق التجارة لوجودها في منطقة جرداء ، ويصفها المقدسى (٥) بأنها « بلد قديم على طرف بحر الصين ، يابس لاءاء ولا كلاً ولا زرع ولا ضرع ولا حطب ولا شجر ولا عنب ولا تمر ، يحمل اليهم الماء في المراكب ومن موضع على برية يسمى سويس على الجمال آجن ردى ، غير أن مساجدها حسنة وبها قصور جلييلة ومتاجر مفيدة ، هي خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج » .

اما مدينة ايلة وهى العقبة الحالية فيذكر المقرئى (٦) انها مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة وانها اول الحجاز ، وبها التجارة الكثيرة ومتاجر واسواق عامرة

١ - المرجع السابق ص ٢٠٢/٢٠١

٢ - المقرئى ، المرجع السابق ج ١ ص ٣٣١

٣ - المرجع السابق ص ٢٠٢/٢٠١

٤ - الكندى - كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٧٧

٥ - المرجع السابق صفحة ١٩٥/١٩٦

٦ - المرجع السابق ص ٣٤٤ ج ١

ويذكر ان اهلها اخلاط من الناس ، وهو امر شائع في المدن التجارية التى تأتى إليها او تمر بها التجارات العالمية •

وكانت عيذاب من اهم موانى البحر الاحمر بالنسبة للتجارة والحج ، فاليها كان يأتى تجار الهند واليمن والحبشة بضائعهم المختلفة وأهمها البهار ، كما كانت طريق الحجاج الى جدة ، وكان الوصول اليها من القسطنطينية الى النيل الى قوص ( بمحافظة قنا بصعيد مصر ) ، ثم بالابل عن طريق صحراء عيذاب الى عيذاب • وكانت هذه الصحراء كما يذكر المقرئى (١) « لا تسزال عامرة أهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج ، حتى ان كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها ، والقفول ( القوافل ) صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد الى ان يأخذها صاحبها » واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٩ م ) وتلاشى امر قوص من حينئذ • والمسافة بين قوص الى عيذاب سبعة عشر يوما • ويستطرد المقرئى (٢) ان عيذاب « كانت من اعظم مراسى الدنيا ، بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صار المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن » • وكان ثراء عيذاب واهميتها سببه التجارة فهى في صحراء لا نبات فيها ، يقول المقرئى (٣) « وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء وكان لاهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى وكان لهم على كل جمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة ولم يكن في اهل عيذاب الا من له جلبة واكثر على قدر يساره » •

اما التجارة بين مصر والنوبة فكان مركزها الرئيسى اسوان ، وكانت مدينة بلاق جنوب اسوان بستة أميال عند منطقة الجنادل هى الحد الذى ينتهى اليه سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر واسوان •

وكان للتجار المصريين الحق في التوغل جنوبا في بلاد النوبة حتى وادى حلفا الحالية وكان الشلال الثانى حدا لا يسمح لاحد من المسلمين او غيرهم بتجاوزه جنوبا الا باذن حاكم المنطقة النوبى الذى كان يعرف بصاحب الجبل والذى كان نفوذه يمتد جنوبا حتى ساي • وجنوب المنطقة التى يحكمها صاحب الجبل لم تكن النقود معروفة فكان تجار مصر وغيرهم يتبادلون بضائعهم بعبيد وماشية وجمال وحديد وجبوب •

اما اهم الطرق التى كانت تسلكها التجارة بين اقاليم مصر او الى خارجها

١ - المرجع السابق ج ١ ٣٧٩ - ٣٨١

٢ - المرجع السابق ص ٣٧٩/٣٨١

والجلاب نوع من السفن لا يستعمل فيها المسامر ، وانما يشد خشبها الى بعضه بجبال من نبات خاص ، ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، ثم يسقونها بدهن الخروع او دهن سمك القرش او السم ، وقلاع هذه المراكب من خوص شجر المقل •

فقد كانت كما ذكرنا طريق النيل الذى كان يعتبر أسرع الطرق وأمنها ، فكانت المدة التى تقطعها السفن من الاسكندرية الى الفسطاط ستة أيام ، ومن الفسطاط الى قوص حوالى العشرة أيام •

وكان الفتح العربى عاملا هاما في نمو حركة الملاحة ، فقد عنوا بحفر الخلجان وهى امهات الترع لتسهيل سير السفن ومن اهم الخلجان التى جدد حفرها بعد الفتح العربى خليجا أمير المؤمنين والاسكندرية •

اما خليج أمير المؤمنين ، فقد قام عمرو بن العاص باعادة حفره ليصل بين النيل والبحر الاحمر لارسال القمح والمؤن للحجاز بناء على طلب الخليفة عمر بن الخطاب • وابتداء الحفر سنة ٢٣ هـ وفرغ منه في ستة اشهر وجرت السفن في الخليج ووصلت الحجاز في الشهر السابع • وكانت السفن النيلية تسير من الفسطاط الى القلزم في خمسة أيام فتفرغ ما تحمله من ديار مصر ثم تعود حاملة ما يرد القلزم من الحجاز وغيره من البلاد ، ومن القلزم تحمل البضائع في سفن كبار الى بلاد الشرق •

وقد ظلت التجارة والاقوات تحمل في هذا الخليج حتى اهمله الولاة بعد خلافة عمر بن عبد العزيز وغطت عليه الرمال وصار نهاية بحيرة التمساح التى تمر بها قناة السويس الحالية • وقيل ان الخليفة ابا جعفر المنصور هو الذى أمر بردمه ليقطع عن الحجاز الطعام ، وذلك عندما نار عليه محمد بن عبد الله ( النفس الزكية ) من بنى الحسين بن على بن ابي طالب •

خليج أمير المؤمنين ، ليس جديدا بل هو خليج قديم ، كان يعرف باسم قناة تراجان تخرج من النيل شمال بابلين وتمر بعين شمس وتسير في نفس مجرى ترعة الاسماعيلية الحالية ثم تتجه جنوبا في مجرى قناة السويس الحالية من بحيرة التمساح مخترقا البحيرات المرة حتى تصب في البحر عند القلزم •

ولكن هذه القناة اقدم من زمن تراجان بكثير وان نسبت اليه لانه اعاد تطهيرها ونقل مخرجها الى بابلين • وكما فعل تراجان فعل عمرو بن العاص بعد ذلك بعدة قرون فلقد اعاد حفر القناة بعد ان كان الرمل قد سدها ، حتى قيل ان عمرا احتاج الى من يدلّه على موضعها من القبط وانه كافاه برفع الجزية عنه وعن أهل بيته (١) ولكن السرعة التى تم بها الحفر تدل على ان اجزاء من هذه القناة كانت موجودة حتى ذلك الوقت •

اما خليج الاسكندرية ، وهو خليج قديم ايضا فقد ارتبط تاريخه بتاريخ مدينة الاسكندرية • فالاسكندر الاكبر عندما بنى مدينته سنة ٣٣١ ق م • ، رأى ان يوفر لها الماء ، فمد قناة من الفرع الكانوبى للنيل ، عند مدينة شديا (٢) • وقد وصف

١ - ابن عبد الحكم ، المرجع السابق ص ١٦٦

٢ - مكانها الحالى قرية الشو الجرى التابعة لمدينة كفر الدوار بالبحيرة •



سترابون المؤرخ والجغرافي اليوناني هذه القناة بانها تقع على يمين الخارج من الاسكندرية عن طريق البوابة الكانوبية . وهذه القناة كانت صالحة للملاحة طيلة السنة ، اذ ان استرابون يذكر ان اكبر مميزات الاسكندرية انها المدينة الوحيدة في مصر كلها ذات الموقع الصالح للتجارة الخارجية لوجود الميناء والتجارة الداخلية لان النهر يحمل وينقل بسهولة كل البضائع الى هذا الموقع .

ولقد ظل هذا الخليج على الحالة التي وصفها استرابون - اى من شديا الى الاسكندرية - حتى القرن الخامس الميلادى حيث فقد الفرع الكانوبى اهميته واصبح مجرد ترعة تخرج من فرع رشيد . فلما فتح العرب مصر اعادوا لهذا الخليج اهميته وقد تغير مكان خروج هذا الخليج منذالفتح عدة مرات الى الشمال . كما ظهر مجراه أكثر من مرة أيضا ، كان اولها على يد الحارث بن مسكين اثنا توليه قضاء مصر من قبل الخليفة الواثق بالله العباسى سنة ٢٣٩ هـ ( ٨٥٣ م ) والثانية في عهد أحمد ابن طولون سنة ٢٥٩ هـ ( ٨٧٢ م ) .

وكان لتشجيع التجارة الخارجية اثره في وفود التجار من كل جنس ومكان ، وكانت هذه الجموع تلتقى في الفسطاط ، فكان في مصر جالية كبيرة من الفرس يحترفون التجارة ، كما كان لليهود نشاط ملحوظ في هذا الميدان .

وبلغ من نشاط حركة التجارة في مصر ان أسامة بن زيد التنوخى والى مصر ( ٩٦/٩٩ هجرية = ٧١٥/٧١٨ م ) اشترى من تاجر واحد هو موسى بن وردان قلفلا بعشرين ألف دينار ، ليهديه الخليفة الوليد بن عبد الملك الى ملك الروم (١) وبلغت ثروة بعض التجار في القرن الرابع الهجرى في بداية الدولة الاخشيدية درجة عظيمة ، حتى ان احدهم وهو عفان بن سليمان البزاز حين توفى اخذ الاخشيد من ماله نحو مائة ألف دينار . (٢)

ولم تكن التجارة تتأثر كثيرا بالسياسة الخارجية بين الدول ، فترى انه رغم العداء والمصادمات التي كانت تحدث بين مصر والروم في عصر الفاطميين ، فان هذا لم يمنع التجار الروم من الحضور الى مصر للتجارة ، ولم يكن هناك ما يمنهم من حرية التجول ، فيذكر المؤرخون ان العزيز بالله الفاطمى عندما اراد الخروج لقتال الروم سنة ٣٨٦ هـ ( ٩٩٦ م ) قام تجار الروم الذين كانوا يقيمون قرب صناعه المقدس باحراق الاسطول مما ادى الى قيام فتنة قتل فيها فريق كبير من تجار الروم حتى يقال ان عدد من قتل منهم مائة وستون رجلا ، وهو عدد كبير يدل على كثرة عدد التجار الروم المقيمين في مصر .

ولما تعرضت البلاد للازمة الاقتصادية في خلافة المستنصر امتنع ورود التجار الى مصر حتى تمكن بدر الجمالى من ازالة آثار هذه الازمة وعادت الحالة الاقتصادية للازدهار ،

١ - ابن الحكم ، المرجع السابق ص ٩٩

٢ - د . سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢٧٩ - ٢٨٠

وشجع اصحاب رؤوس الاموال وذوى اليسار على الحضور الى مصر فكثر ورود  
التجار في ايامه بعد نزوحهم عنها وخروجهم ايام الغلاء ، واخذت القوافل التجارية ترد  
من جديد من كل مكان .

وكانت الضرائب التى تحصل من التجارة كبيرة ، فيذكر المقدسى (١) « واما الضرائب  
ثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، واما ثياب الشطوية فلا يمكن  
لقبطى ان ينسج شيئا منها الا بعد ان يختم عليها بختم السلطان ، ولا ان تباع الا على  
يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يشترى ما يباع في جريدته ثم تحمل  
الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش ثم الى من يشدها في السفط والى من يحزمها ،  
وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب البحر يؤخذ ايضا شئ ، وكل واحد يكتب  
على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلعها ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار  
ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل بالسفط ضرائب ثقال ، ورأيت بساحل  
تنيس ضرائبيا جالسا قبل قبالة هذا الموضع ( اى ما يتحصل من الضرائب ) في  
كل يوم الف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية ،  
وبالاسكندرية ايضا على مراكب الغرب والفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقلزم  
عن كل حمل درهم » .

وكانت المعاملات التجارية تتم في مصر قبل الفتح وبعده بالدينار البيزنطى وكان  
من الذهب والدرهم الفضية ، وظل الامر كذلك حتى ضربت السكة العربية ذات  
الوزن الثابت في خلافة عبد الملك بن مروان وتحريم استعمال النقود الاجنبية فاستعملت  
العملة الاموية ثم العملة العباسية بعد قيام دولتهم ، وعندما استقل أحمد بن طولون  
بمصر أسس دارا لضرب النقود وفيها كانت تسك الدنانير الاحمدية المنسوبة اليه والتى  
امتازت بجودتها (٢) . كذلك سك دنانير اخشيدية في الدولة الاخشيدية .

ولما فتح الفاطميون مصر ، استعمل الدينار المعزى نسبة للمعز لدين الله الفاطمى  
فاتضع الدينار الراضى وانحط ونقص من صرفه اكثر من ربع دينار ، فخر الناس  
كثيرا من اموالهم في الدينار الابيض والدينار الراضى ، وكان صرف المعزى خمسة عشر  
درهما ونصف (٣) .

واصبحت السكة منذ ذلك الوقت فاطمية وقد عني الفاطميون بدار الضرب التى  
انشأوها بجوار الازهر فكان يتولاها قاضى القضاة لجلالة قدرها عندهم (٤) وفي شوال  
سنة ٥١٦ هـ ( ١١٢٢ م ) أمر المأمون بن البطائع وزير الخليفة الامر الفاطمى  
ببناء دار ضرب جديدة عرفت بالدار الامرية واستخدم لها العدول وصار دينارها أعلى  
عيارا من جميع ما يضرب بجميع الامصار (٥) كما قرر المأمون دورا للضرب  
بالاسكندرية وقوص وصور وعسقلان (٥) .

١ - المرجع السابق ص ٢١٣

٢ - البلوى ، المرجع السابق ص ١٩٦

٣ - القرينى ، المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩٤

٤ - القرينى ، المرجع السابق ص ١٩٤

٥ - القلشندي ، المرجع السابق ج ٣ ص ٣٩٦ .

## مصادر ومراجع البحث

- ١ - ابن عبد الحكم ( ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن اعين القرشي المصري ) ٢٥٧/١٨٧ هـ  
- « فتوح مصر واخبارها » لندن ١٩٢٠ هـ
- ٢ - البلوى ( ابو محمد عبد الله بن محمد المديني ) القرن ٤ هـ  
- « سيرة أحمد بن طولون » تحقيق محمد كرد علي دمشق ١٣٥٨ هـ
- ٣ - القلقشندي ( أحمد بن علي ) ت ٨٢١ هـ  
- « صبح الاعشى » المطبعة الاميرية بالقاهرة .
- ٤ - كاشف ( سيدة اسماعيل - دكتورة )  
- « مصر في فجر لاسلام » القاهرة ١٩٤٧ م  
- « مصر في عصر الاخشيديين » القاهرة ١٩٥٠ م
- ٥ - الكندي ( ابو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ) ٣٥٠/٢٨٣ هـ  
- « كتاب الولاة وكتاب القضاة » بيروت ١٩٠٨ م
- ٦ - المقدسي المعروف بالبشاري ( شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد ) ت ٣٨٠ هـ  
- « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » لندن ١٩٠٦ م
- ٧ - المقرئ ( تقي الدين احمد بن علي ) ٨٤٥/٧٦٦ هـ  
- « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ  
- « اغاثة الامة بكشف الغمة » نشر الدكتورين مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٤٠ م
- « اتعاظ الخلفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة .
- ٨ - المناوي ( محمد حمدي - دكتور )  
- « نهر النيل في المكتبة العربية » القاهرة ١٩٦٦ م  
- « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي » دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ م  
- « مصر في ظل الاسلام » دار المعارف بالاسكندرية ١٩٧٠ م .